علاقة العثمانيين وآل أفراسياب بالأحساء خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر

طارق نافع الحمداني*

* حصل على الدكتوراه من جامعة مانشستر بانجلترا، ١٩٨٠.
يعمل مدرساً للتاريخ الحديث في كلية التربية بجامعة بغداد.

الملخص

لقد تم كشف النقاب عن بعض جوانب الحكم العثماني في الأحساء خلال القرن السادس عشر، إلا أن ما يتعلق بأحداث هذه المنطقة في القرن السابع عشر وما بعده مازال بحاجة إلى دراسة تفصيلية وعميقة، ولعل في الدراسة التي نقدمها ما يبرز تاريخ منطقة الأحساء، من خلال الاعتماد على المصادر المخطوطة التي لم يجر استخدامها إلى الآن.

وصل العثمانيون إلى البصرة عام ١٥٤٦/٩٥٣، وامتد نفوذهم إلى الأحساء بعد سنوات من ذلك، فأصبحت الأخيرة إلى جانب البصرة بمثابة القاعدة الاستراتيجية المهمة للعثمانيين على رأس الخليج العربي والمناطق المطلة عليه، فضلا عن كونها نقطة لكبح جماح القبائل البدوية التي تشكل مصدر قلق للسيادة العثمانية في مناطق جنوب العراق، ومن بينها قبائل بني خالد.

على أن النفوذ العثماني في الأحساء، وعلى غرار ما كان عليه بالنسبة للبصرة ــ أصبح بمرور الزمن ضعيفاً ومهلهلا، مما مهد السبيل لقيام الأسر المحلية الحائلية في كل من البصرة والأحساء. ففي البصرة قام آل أفراسياب (١٥٩٦ ــ ١٦٦٨)، الذين مدوا نفوذهم إلى الأحساء أيضاً، فاتصل حاكم الأحساء ــ محمد باشا ــ بالدولة العثمانية مما جعل هذه المنطقة موضع صراع بينهما. وفي هذا الصراع حدث نوع من التقارب بين القوى المحلية المتمثلة بآل أفراسياب في البصرة وبني خالد في الأحساء ضد الدولة العثمانية، إلا أن رغبة هذه القوى في الاستئثار بالحكم قد أوقعها في صراع ثانوي فيما بينها. وكانت الغلبة في أول الأمر لآل أفراسياب.

على أن هناك ثمة عوامل أدت إلى بروز قوة بني خالد وانكماش قوة آل أفراسياب والدولة العثمانية في ذات الوقت. ذلك أن صراعاً جديداً قد نشب بين القوتين الأخيرتين، بسبب رغبة الدولة العثمانية في استرجاع نفوذها المباشر على البصرة، وقد استطاعت تحقيق ذلك فعلا بعد حملات عدة على المنطقة كان آخرها عام ١٦٦٨/١٠٧٨. ولكن ما أن استعاد العثمانيون نفوذهم المباشر على البصرة حتى بدأوا يفقدونه في الأحساء، وذلك لأن الوجود العثماني في أرض الجزيرة العربية بدأ يتقلص، لانشغال العثمانيين بحروب طويلة مع الدول الأوروبية، فوجد بنو خالد الفرصة سانحة للقضاء على الحكم العثماني في منطقتهم، وقد تمكنوا من ذلك عام ١٦٧٠/١٠٨٠، بعد أن طردوا الحاكم العثماني في الأحساء.

١ ــ تمهيد

أ ــ دراسة في مصادر البحث

لم تجر إلى الآن دراسة وافية عن علاقة العثمانيين بالأحساء ما بين ١٥٥٠ إلى ١٦٧٠، أو علاقة آل أفراسياب به ما بين ١٥٩٦ إلى ١٦٦٨، ولعل الدراسة الوحيدة التي تناولت الفترة الأولى هي ما قام به مندفيل Mandaville في بحثه المعنون «ولاية الأحساء العثمانية في القرنين السادس عشر والسابع عشر» (Mandaville 1970 : 486 ــ 513). غير أن هذه الدراسة، رغم اعتمادها على الوثائق العثمانية، لكنها لا تتطرق في الحقيقة إلى أحداث القرن السابع عشر في ولاية الأحساء بأي شكل من الأشكال، وهو ما ننوي القيام به بشكل خاص في هذا البحث.

إن معالم تاريخ المنطقة التي نتصدى لها مجهولة إلى حد كبير ولا يستطيع الباحث أن يهتدي إليها بسهولة ويسر. وليس أدلّ على ذلك مما ذهب إليه الإحسائي (الاحسائي، جـ١، ١٩٦٠ : ٧). عندما قال:

«وقد يجد القارىء نقصاً في استيفاء أخبار الحكومات منذ نشأتها إلى انقضائها، أو تفككاً في بعض حلقات التاريخ، وتنسيق الحوادث، وذلك لعدم وجود المصادر الوافية بهذا الغرض، ولعدم وجود تاريخ خاص بهذه البلاد..». ولعل هذه النظرة بالذات هي التي جعلت الباحثين يترددون كثيراً في الخوض في موضوعات عن هذه المنطقة، وكانوا يلجأون في الغالب إلى المصادر الأوروبية دون العربية، بحيث جاءت كتاباتهم تحمل النظرة الأوربية لا المحلية لأحداث المنطقة.

أما اعتماد هذا البحث فسيكون قائماً بالدرجة الأولى على المصادر العربية المتداولة، بخاصة تلك التي لها علاقة بتاريخ البصرة والجزيرة العربية، بالإضافة إلى المخطوطات التي لم تتم الاستفادة منها لحد الآن في موضوع الأحساء، ونذكر بشكل خاص مخطوطتي «عيون أخبار الأعيان ممن مضى في سالف العصور والأزمان» لمؤلفها أحمد بن عبدالله الغرابي البغدادي المتوفى عام ١١٠٢هـ/١٦٩١م، ومخطوطة «منظومة في تاريخ البصرة»، لياسين بن حمزة آل شهاب البصري. وتعد المخطوطة الثانية، رغم كونها منظومة شعرية، من أكثر المؤلفات تفصيلاً عن علاقة آل أفراسياب بالأحساء وببني خالد.

وإلى جانب ذلك كله فقد تمت الاستفادة من بعض المؤلفات الأوروبية المعاصرة مثل رحلة تيفنو Thevenot إلى الشرق، حيث زار البصرة عام ١٦٦٤ ــ ١٦٦٥ فكتب عن

علاقة هذه المنطقة بالأحساء، «ومثل حوليات الآباء الكرمليين في فارس»، التي لا تخلو من إشارات مفيدة، علاوة على مصادر أخرى عديدة مذكورة في ثنايا البحث.

ب ــ جغرافية الأحساء وسكانها

الأحساء في الوقت الحاضر هي المقاطعة الشرقية في المملكة العربية السعودية، وتطلق على المنطقة الممتدة على الساحل الغربي من الخليج العربي، من حدود الكويت الجنوبية إلى حدود قطر وعمان وصحراء الجافورة. أما في القرنين السادس عشر والسابع عشر فقد كانت الأحساء هي التسمية الإدارية للمناطق التابعة للعثمانيين في شرقي الجزيرة العربية، والتي أراد العثمانيون اتخاذها قاعدة عسكرية أمامية لمواجهة البرتغاليين في الخليج العربي (Mandaville 1970 : 489). وعلى هذا الأساس أشارت المدونات التاريخية إلى الأحساء باعتبارها ولاية عثمانية أهم مدنها القطيف، العيون، القصير والمبرز (Pitcher,1972 : 142)، (Rycaut,1971 : 56). أما حدود الأحساء في العهد العثماني فتتمثل بالشريط الساحلي الممتد على ساحل الخليج العربي الغربي، وتمتد المنطقة في جنوب الكويت حتى قطر وحدود عمان وصحراء الجافورة شرقاً، والى أرض الصمان غرباً.

والقسم الأكبر من الأحساء سهل صحراوي، يرتفع في الجهة الغربية عن ساحل البحر، حيث تتشابه البلاد مع تهامة. ويمتد مرتفع الصمان الصخري موازياً لساحل الخليج العربي متوسطاً بين الأحساء وبين الدهناء حيث يفصل هذا القسم عن نجد (Ahandbook of Arabia,1916, Vol,L, 297). وبالرغم من أن الإقليم يقع ضمن منطقة قاحلة تتميز بقلة الأمطار، فإن المنطقة عموماً تمتاز بوفرة مياهها وغزارتها، لوجود عدد كبير من الآبار، مما جعلها مكاناً مناسباً لوفرة المراعي، التي أصبحت آهلة بالسكان البدو (Crichton,1852 : 29)، (فضيل، ١٩٧٦ : ١٥١)، ولهذا أصبحت المنطقة ذات أهمية كبيرة لأهل نجد من الناحية الاقتصادية، فقد كانت القبائل النجدية تذهب أحيانا إلى الأحساء لتشتري ما تحتاج إليه من مواد غذائية خاصة التمر. كما كان التجار النجديون يذهبون إلى هذه المنطقة أيضاً ليبيعوا ما لديهم من منتوجات بلادهم و يشتروا ما يجدونه في شرق الجزيرة من منتوجات، أو مما يستورد عن طريق موانئها مما هم في حاجة إليه (Niebuhr,1792 : 125)، (العثيمين، جـ ٢، ١٩٧٦ : ٧٣٦).

وكان أبرز من سكن الأحساء من القبائل العربية آل أجود أو الجبريون، الذين ينتمون لبني عقيل، وهم إخوة المنتفق أو أبناء عمومتهم، وقد استوطن الأخيرون الأقسام الجنوبية من العراق (العزاوي، جـ ٤، ١٩٥٦ : ٧٦). اما آل الأجود الجبرى فقد حكموا الأحساء

خلال القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر، وامتد حكمهم (أي الجبريين) إلى البحرين وعمان، ، وأجزاء واسعة من نجد (الحميدان: ١٩٨٠: ٥٩ ــ ٦١).

وسكن الأحساء أيضاً بنو خالد، الذين يعتبرون من أهم القبائل العربية في الجزيرة العربية، سواء بسبب سعة مناطق نفوذهم، أو ثروتهم، أو أعداد القبائل الكثيرة التي خضعت لهم. ومع أننا لا نعلم على وجه التحديد تاريخ قدومهم إلى الأحساء، إلا أن مجيئهم كان من صحراء نجد، حيث تقدموا باتجاه البحر، واتخذوا من مناطق الأحساء الواقعة على ساحل الخليج العربي منازل لهم (Niebuhr,1792 : Vol.11 : 168)، (Handbook of Aribia,1916,Vol.I : 84).

أصبح بنو خالد من بين القوى المعتبرة في الأحساء في الربع الأول من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي. ولعل ما يدل على ذلك الأبيات الشعرية التالية التي قيلت في مدح زعيم من زعماء الأحساء وهو مقرن بن أجود الذي استشهد دفاعاً عن بلاده ضد الخطر البرتغالي عام ٩٢٧ هـ / ١٥٢٠ م حيث جاء فيها:

حمى بالقنا هجرا إلى ضاحى اللوى إلى العارض المنقاد نابى القرايد
ونجد رعى ريعي زاهي فلاتها على الرغم من سادات لام وخالد
(العثيمين، جـ ٢، ١٩٧٦: ٧٣٦)، (ابن لعبون، ١٣٥٧ هـ: ٣٢).

وتشير الكتابات التاريخية إلى أنه كان بمقدور قبائل بني خالد أن تتحدى تحرشات أشراف مكة عام ٩٨٩ هـ / ١٥٨١ م عندما أراد هؤلاء أن يَتحَدّوا سلطان بني خالد في الأحساء (ابن بشر، جـ ٢، ١٩٨٣: ٤ ــ ٣٠٤)، و يظهر أن قبائل بني خالد كانت خلال القرن السادس عشر تجوب شرقي الجزيرة العربية من قطر إلى البصرة طول الوقت متنقلة حسب ما تمليه الظروف الجوية عليها (Dellavalle ،1665 :258)، (أبو حاكمة، ١٩٦٧: ٤٧).

ومهما يكن من أمر فإن قوة بني خالد ظهرت بصورة جلية في شرقي الجزيرة العربية خلال القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي وهذا ما يمكن إدراكه من قيامهم بطرد العثمانيين من الأحساء عام ١٠٨٠ / ١٦٧٠ كما سنرى.

٢ ــ العثمانيون والأحساء

في منتصف القرن السادس عشر احتل العثمانيون الأحساء والقطيف وحكموا هذه البلاد حكماً مباشراً، ولكن نفوذهم لم يكن بنفس الفعالية خلال المائة والثلاثين سنة القادمة.

فبينما كانت الأحساء والقطيف تتبعان لولاية البصرة تحولت المنطقة عام ٩٦٣ هـ/١٥٥٥م إلى ولاية، بعد أن تمكنت حملة عثمانية في السنة المذكورة من دخول الأحساء واحتلالها (الاحسائي، جـ ١، ١٩٦٠: ١٢١)، (اورهونلو، ١٩٨٠: ٢١٥).

ليس لدينا شيء مهم عن التطورات التي حدثت في الأحساء في الفترة التي تلت تعيين فاتح باشا أول والٍ عثماني عليها، وكل ما تورده المصادر عن الوضع هناك أن هذا الوالي، والولاة العثمانيين الآخرين الذين تبعوه كانوا لا يحتفظون إلاّ بسلطة في القطيف والأحساء والمراكز المهمة الأخرى، بينما كانت المناطق الجنوبية تقع في حوزة القبائل العربية من بني خالد (اورهونلو، ١٩٨٠: ٢١٥)، (3 ــ 502 :1970، Mandaville). ومن الممكن أن نصيب الحقيقة إذا رتبنا أحداثها التاريخية على هذه الصورة: لقد أصبح محمد باشا والياً على الأحساء في حوالي عام ٩٦٨ هـ/١٥٦٠م ثم خلفه أحمد بيك في حوالي عام ٩٨٦/١٥٧٨م، إلا أن فترة حكمه كانت مليئة بالاضطرابات، وقد تسببت في قيام انتفاضة بني خالد ضد سلطة الولاة العثمانيين في الأحساء (500:1970، Mandaville). كما مهدت هذه الظروف لمجيء علي باشا عام ٩٩٥ هـ / ١٥٨٦ م (العزاوي، جـ ٤، ١٩٤٩: ١١٥)، الذي يظهر أنه استطاع خلال الأعوام التالية تثبيت سلطانه هنا، وبالتالي خلع النير العثماني عن كاهله.

لقد اعتمدنا في الوصول إلى هذه النتيجة على إشارات متعددة في المصادر العربية. فهذا عثمان بن بشر وإبراهيم بن صالح بن عيسى يشيران إلى أن الروم «استولوا على بلد الأحساء والقطيف في تمام الألف» (ابن بشر، جـ٢، ١٩٨٣: ٣٠٥)، (ابن عيسى، ١٩٦٦: ٤٧)، أي عام ١٥٩١. ولعل المقصود بهذه الإشارة هو ليس استيلاء العثمانيين الأول على الأحساء ــ لأنه تم في فترة سابقة من القرن السادس عشر ــ بل المراد بها على ما يبدو هو ما حدث في هذه السنة من تطورات مهمة في طبيعة الحكم هناك. هذه التطورات يكشفها لنا المؤرخ الغرابي البغدادي في كتابه «عيون أخبار الأعيان» بقوله:

«وأهل الأحساء قتلوا حاكمها (لعله أحمد بيك) ونصّبوا علي باشا البغدادي حاكماً عليهم، وأرسلوا أخبروا السلطان بأن الأمر لا يستقيم إلاّ على هذا.. وقد أجازت السلطنة ما فعلوا وأرسلوا (لعلي باشا) منشوراً وخلعا» (الغرابي، مخطوط رقم ٩٣١١، الورقات ١٣٤ ــ ٥).

يظهر لنا هذا النص حلقة مفقودة في تاريخ الأحساء، تلك الحلقة التي لم يجد المؤرخون لها حلا حتى الآن، وهي كيفية انتقال السلطة من الولاة العثمانيين إلى حكام الأحساء المحليين، الذين حكموا هذه البلاد حكماً وراثياً فيما بعد. ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ

أن الأحساء استمرت تذكر في السجلات العثمانية خلال القرن السابع عشر باعتبارها ولاية عثمانية، رغم أن الحكم العثماني في هذه الفترة كان اسمياً لا واقعياً، وأن العلاقة الوحيدة بين حكام الأحساء المحليين والدولة العثمانية هي الالتزامات المالية التي كان يدفعها هؤلاء الحكام لولاة بغداد (Chelebi ،1834: 96)، (Pitcher، 1972: 142).

وعلينا الآن أن نعود إلى مجرى الحوادث التاريخية وإلى النقطة التي تركنا فيها علي باشا يتولى السلطة في الأحساء، من أجل متابعة تاريخ ولاية هذا الحاكم، التي امتدت على ما يبدو حتى العقد الرابع من القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي. وعلي باشا هذا هو الذي استقبل الشريف محسن بن حسين بن حسن شريف مكة وأبناء عمه ضاوي عبد المطلب عام ١٠٣٢ هـ/١٦٢٢م، أثناء الزيارة التي قاموا بها للهفوف من جملة جولة واسعة لهم في شرق الجزيرة (ابن بشر، جـ٢، ١٩٨٣: ٣٠٧)، (فيلبى، بدون تاريخ: ٧ ــ ٨).

وكان أهم حدث في ذلك الحين هو قصة إرسال علي باشا لولده محمد إلى السلطان العثماني وهو يحمل الأموال المفروضة عليه إلى خزينة الدولة جرياً على العادة المألوفة. غير أن محمداً هذا زوّر كتاب أبيه إلى السلطان وجعله بالصورة الآتية:

«انه قد كبر في السن والتمس من السلطان أن يقيم ولده محمداً في الولاية على الأحساء بمرسوم سلطاني، فأجيب إلى ذلك. ولما وصل إلى الأحساء أرشى أكابر العساكر وأعلمهم بالأمر، وتلقاه والده واخوته فلما اجتمعوا أخرج المرسوم وتولى بموجبه، وأراد حبس والده وإخوته فطلبوا أن يجهزهم إلى الحرمين الشريفين و يعين لهم مصروفاً، فجاءوا إلى المدينة وجاوروا بها. وتوفى والده علي باشا سنة ١٠٥١/١٦٤١» (المجى، جـ٤، بدون تاريخ: ٤٧٦)، (العصامي، جـ٤، بدون تاريخ: ٥٤٨ ــ ٩)، وتوفى إخوته الآخرون فيما بعد.

لم يصل إلينا خبر كثير من الأحداث الخاصة بالأحساء بعد هذه الواقعة، غير أن أحداثاً أخرى فرضت نفسها على المسرح السياسي هناك ألا وهي قضية لجوء بعض أفراد أسرة آل أفراسياب الحاكمة في البصرة إلى الأحساء، واتخاذ حسين باشا حاكم هذه المدينة، الأمر ذريعة للتدخل العسكري في شؤون الأحساء، حيث أصبحت هذه المنطقة، شأنها شأن البصرة، موضع اهتمام وصراع بين آل افراسياب والعثمانيين.

٣ ــ آل أفراسياب والأحساء

استطاع آل أفراسياب أن يقيموا إمارة مستقلة في البصرة منذ عام ١٠٠٥/١٥٩٦م واستمرت حكومتهم هناك على عهد كل من أفراسياب باشا وعلي باشا وحسين باشا. وعرف

عن هذا الحاكم الأخير سوء تصرفه وظلمه مما تسبب في تنفير الرعية منه، حتى أقرب المقربين إليه ــ ومنهم عماه أحمد أغا وفتحي بك ــ حيث أمر حسين باشا بإلقاء القبض عليهما ونفاهما إلى الهند، إلا أنهما استطاعا الإفلات من الحراس والنزول في القطيف عند أحد معارفهما القدامى محمد باشا حاكم الاحساء عام ١٠٦٤ / ١٦٥٣ (١). فكتب المنفيان من هناك إلى الدولة العثمانية يعرضان عليها ما أصابهما من حيف وما كان يفعله حاكم البصرة، فكتب المسؤولون إلى مرتضى باشا، والي بغداد، فاغتنم هذا الخلاف وسيلة للتدخل في شئون البصرة واستعادتها للحكم العثماني المباشر (الكعبي، ١٩٢٤: ١٩).

لقد انتهت هذه الأحداث بمقتل أحمد أغا وفتحي بك على يد مرتضى باشا الذي طمع بالسلطة في البصرة (الغرابي، مخطوط رقم ٩٣١١: ورقة ٢١٠)، إلا أنه عجز عن الاحتفاظ بها بسبب نقمة الأهلين عليه فاضطر إلى الانسحاب من البصرة. وعندئذ رجع حسين باشا إليها، وقد قدر له أن يحكمها أربعة عشر عاماً أخرى.

لم يكن من المتوقع أن يترك حسين باشا والي الأحساء محمد باشا دون عقاب، لما لعبه من دور كبير في تحريض عمّيه أحمد أغا وفتحي بك على الخروج عليه. وجاءت الفرصة المواتية لذلك عام ١٠٧٦/١٦٦٥، عندما شعر حسين باشا أن بإمكانه القيام بهذا العمل بسبب انشغال الدولة العثمانية في حرب مع الدول الأوروبية، واعتقاده باستمرار هذه الحرب (Thevenot، 1971 : 160)، فبادر بإرسال قوة عسكرية مؤلفة من حوالي ثمانية آلاف رجل مع أسلحتهم ومعداتهم لاحتلال الأحساء. واستمال في الوقت نفسه الأمير براك بن غرير، رئيس عشائر بني خالد، على أن يقود هذه القوة سلمان، أحد أمراء حسين باشا. فلم يجد هذا صعوبة في تسلم البلد من محمد باشا، غير أنه أراد أن يحتفظ به لنفسه وبألاّ يرجعه، لكن الأمير براك منعه من ذلك، فجرد أفراد الجيش من أسلحتهم وطردهم من الأحساء وحكمها بنفسه (الكعبى، ١٩٢٤: ٤١). ولعل من أفضل المراجع في هذه الواقعة هي «منظومة الشهابي» وإن كانت تنتصر لجهة حيث جاء فيها:

ثم دعته نفسه الأمّارة ... لأخذ الحسا من يد الامارة
فابتدأ الأخذ من القطيف ... من غير أمر معه شريف
فقرب الأعراب بعد ذاكا ... واختار منهم صاحباً براكاً
فاتفقا جوراً على محمدِ ... بأن يزيلاه وذا فعل ردى
فعند ذا أرسل سلمان إلى ... الأحساء وبراك يزكي العملا
فراد من براك الأمانا ... فلم يكن في أمنه خوانا
فبعد ذا سلم سلمان البلد ... من بعد قبض بشهود وسند
فرام سلمان الدخول في البلد ... مع جنده أهل الفساد والحقد

فقدم يدعى ذو الدها براك شيخ بني خالد الفتاك فاستأصل السلاح منهم بالهدد ثم جميعهم من الأحساء طرد (الشهابي، مخطوط رقم ١١١٣٩: الورقات ٢ ــ ٣).

وحالما وصل الخبر إلى حسين باشا أخذ يعد العدة لمقاتلة الأمير براك وأصبح التصادم بينهما أمراً لا مفر منه. إذ جهز حسين باشا حملة عسكرية سريعة تحت قيادة أمير له يدعى يحيى، ودارت بينه وبين الأمير براك معركة حامية، كان النصر فيها للأمير يحيى، وعندئذ هرب الأمير براك من البلد، فجاء أعيان الأحساء يطلبون الأمان فأمنهم، وصار حاكماً هناك (الشهابي، مخطوط رقم ١١١٣٩: الورقات ٣ ــ ٤).

أما محمد باشا، حاكم الأحساء، فقد ذهب إلى شريف مكة الشريف زيد، من أجل أن يقوم بمهمة التوسط بينه وبين الدولة العثمانية، لتمد له يد المساعدة لاستعادة مكانته في الأحساء (الغرابي، مخطوط رقم ٩٣١١: ورقة ١٣٢)، (مرتضى، ١٩٧١: ٢٦٤). وقد وجدت الدولة العثمانية في هذا الأمر فرصة لتجهيز حملة ثانية على البصرة، وذلك في عام ١٠٧٥/١٦٦٥، ولكن هذه الحملة فشلت في استعادة البصرة إلى حظيرة الدولة العثمانية مما دعا الأخيرة إلى فتح باب المفاوضات مع حاكم البصرة حسين باشا أفراسياب. وكان من بين شروط الاتفاق بينهما أن يعاد محمد باشا إلى الأحساء، وعلى حد قول مرتضى أفندي «فقد أرسل محمد باشا إلى مقره في الأحساء بواسطة السفن، يصحبه مائتان من الجنود لحمايته» (مرتضى، ١٩٧١: ٢٦٨).

ومن المناسب الآن أن نعود إلى تقصي الأوضاع في الأحساء، لما لها من علاقة وثيقة بأوضاع البصرة. ففي أثناء الحملة العثمانية الثانية على البصرة، استدعى حسين باشا صهره الأمير يحيى من الأحساء، ليصلح أموره عند الباب العالي، وعين مكانه الأمير عمر الحليبي. ولكن الأمير الجديد واجه مقاومة براك، الذي فرض الحصار عليه، فعاد إلى البصرة عند طلب حسين باشا. وعندها عين حسين باشا عيسى بن علي، أخا محمد باشا حاكم الأحساء السابق. وهو الذي ورد إليه الأمير براك فأخبره بأنه يحمل أمراً من أخيه بتفويض الأمور إليه، فخرج عيسى من الأحساء دون قتال، وآل الأمر إلى الأمير براك (الشهابي، مخطوط رقم ١١١٣٩: الورقات ١٢ــ ١٣).

ويبدو أن محمد باشا قد عاد إلى ولايته بدليل ما أشار إليه مرتضى أفندي حين قال «وعاد يناصب (أي حسين باشا) حاكم الأحساء العداء...» (مرتضى، ١٩٧١: ٢٦٩). وكانت الدولة العثمانية قد استغلت هذا الحادث، وحوادث أخرى كثيرة، من أجل أن توجه

حملتها الثالثة ضد البصرة عام ١٠٧٨/١٦٦٧ وهي الحملة التي انتهت باحتلال العثمانيين لها.

١٠ ــ قيام بني خالد وزوال الحكم العثماني

سبق أن أشرنا إلى أن بني خالد كانوا من بين القوى الرئيسية في الأحساء قبل دخول العثمانيين لهذا البلد، وقد استمروا كذلك بعد احتلال العثمانيين له، ولعلهم كانوا القوة الوحيدة التي أظهرت تحدياً جدياً للسيطرة العثمانية(٢). ومن المحتمل ــ والحالة هذه ــ أن يكون العثمانيون قد ولوا سعدون بن حامد رئيس العشيرة، إدارة عشيرته برتبة حاكم سنجق تفادياً للصعوبات التي قد يثيرها للعثمانيين في الأحساء، ولكن يبدو أن هذا كان ينتظر الفرصة المواتية للاستحواذ على البلاد، وليس أدلّ على ذلك من مطالبته بولاية الأحساء بعد فشل العثمانيين في السيطرة على البحرين عام ١٥٥٩ (أورهونلو، ١٩٨٠: ٢١٧)، (Mandaville, 1970: 482,499).

ومع أن هذا الأمر لم يتحقق فإن تطلعات سعدون لم تنته. إذ على الرغم من محاولة العثمانيين لاسترضائه عن طريق إعطائه مهمة السيطرة على القبائل العربية في شرق الجزيرة، فإن مجمل الأحداث في ذلك الوقت تشير إلى أنه ظل على علاقة سيئة مع السلطة العثمانية في الأحساء طوال القرن السادس عشر (Mandaville, 1970: 499-502).

ومع أن المصادر المتوفرة لدينا إلى الآن لا تلقي الضوء على نشاط بني خالد خلال النصف الأول من القرن السابع عشر ــ ربما بسبب سيطرة الحكام المحليين في الأحساء على الأمور هناك ــ فإنهم أصبحوا يمثلون القوة القبلية البارزة في المنطقة بعد منتصف القرن المذكور. فقد سبق أن أشرنا إلى تعاون براك بن غرير آل حميد، رئيس عشيرة بني خالد، مع حسين باشا أفراسياب حاكم البصرة عام ١٠٧٦/١٦٦٥ عندما قام الأخير باحتلال الأحساء. وحالما تم ذلك الأمر، واطمأن براك إلى قوته، رفض أن يشاركه آل أفراسياب حكم الأحساء ولهذا طرد قواتهم منها (الشهابي، مخطوط رقم ١١١٣٩: الورقات ٢ــ٣)، (Thevenot, 1971: 160).

بيد أن موقف بني خالد ظل بين مد وجزر، وذلك لأن كلا من آل أفراسياب والعثمانيين كانوا يرغبون في السيطرة على الأحساء. وعندما نجح العثمانيون عام ١٠٧٨هـ/١٦٦٧ باحتلال البصرة وطردوا آل أفراسياب منها أحكموا الطوق على أطراف الجزيرة العربية، والظاهر أنهم استعادوا نفوذهم المباشر في الأحساء أيضا. فهذا محمد بن

عبدالله الأحسائي يشير إلى أن «عمر باشا آخر الولاة العثمانيين، قد ولى الأحساء للدولة..» (الاحسائي، جـ٢، ١٩٦٠: ١٢٢).

لكن الدولة العثمانية في ذلك الوقت لم تكن قادرة على الاحتفاظ بمواقعها في الأحساء. فقد كانت تعاني من مشاكل عديدة، وبخاصة حروبها مع القوى الأوروبية، مما أدى إلى انحسار نفوذها في كثير من المناطق (الاحسائي، جـ٢، ١٩٦٠: ١٣٢)، (Thevenot, 1971: 160). واستغل بنو خالد ظروف الدولة العثمانية هذه، وتمكنوا عام ١٠٨٠هـ/١٦٧٠ من طرد عمر باشا آخر الولاة العثمانيين في الأحساء، وأجبروا الحامية العثمانية الموجودة هناك على مغادرة البلاد (ابن بشر، جـ٢، ١٩٨٣: ٣٣٠)، (ابن عيسى، ١٩٦٦: ٦٢).

وبهذه الصورة تنتهي علاقة العثمانيين وآل أفراسياب بالأحساء، بعد فترة طويلة من النفوذ العثماني الاسمى الذي دام ما يقرب من مائة وثلاثين عاما، وأصبح الطريق مفتوحا لقيام بني خالد الذين حكموا الأحساء حتى نهاية القرن الثامن عشر.

الهوامش

١) أنظر:
A Chronido of the Crarmelities in Persia and the papal Mission of the XVIIth and XVII th Genturies (London, 1939), Vol., 11, p. 1140.

٢) أنظر حول هذا الموضوع مانديفل في مواضع عديدة.

المراجع العربية

ابن بشر، عثمان بن عبدالله — **عنوان المجد في تاريخ نجد**، حقّقه وعلّق عليه عبدالرحمن بن عبداللطيف بن عبدالله آل الشيخ، جـ٤، الرياض: ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م

ابن عيسى، إبراهيم بن صالح — **تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد**، الرياض: ١٩٦٦.

ابن لعبون، — **تاريخ حمد بن لعبون**، مكة المكرمة: ١٣٥٧هـ.

أبو حاكمة، أحمد مصطفى — **محاضرات في تاريخ شرقي الجزيرة العربية في العصور الحديثة**، القاهرة: ١٩٦٧

الاحسائي، محمد بن عبد الله بن عبدالحسن آل عبد القادر الأنصاري — **تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد**، جـ١ تحقيق حمد الجاسر، الرياض: ١٩٦٠.

أورهونلو، ي — «تقرير حول الحملة العثمانية على البحرين سنة ١٥٥٩»، ترجمة الدكتور حسين علي الداقوقي، **مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية**، عدد ٢٤، السنة السادسة، تشرين الأول، ١٩٨٠.

الحميدان، عبداللطيف ناصر «التاريخ السياسي لامارة الجبور في نجد وشرق الجزيرة العربية»، **مجلة كلية الآداب**، جامعة البصرة: العدد ١٦، السنة ١٤، ١٩٨٠.

الشهابي، ياسين بن حمزة **منظومة في تاريخ البصرة**، مخطوطات المتحف العراقي رقم ١١١٣٩، الورقات ٢، ٣، ٤، ١٢، ١٣.

العثيمين، عبدالله الصالح «العلاقة بين حكام الأحساء وحركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب» البحوث المقدمة إلى **مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية**، جـ٢، قطر: الدوحة: ١٩٧٦.

العزاوي، عباس ــ **تاريخ العراق بين احتلالين**، جـ ٤، بغداد: ١٩٤٩.

ــ **عشائر العراق**، جـ ٤، بغداد: ١٩٥٦.

العصامي، عبدالملك بن حسين بن عبدالملك **سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي**، جـ٤، المطبعة السلفية بدون تاريخ.

الغرابي، أحمد بن عبدالله البغدادي **عيون أخبار الأعيان فيما مضى في سالف العصور والأزمان**، مخطوط بمكتبة المتحف العراقي برقم ٩٣١١، الورقات ١٣٤ ــ ٥.

فضيل، عبد خليل «القطيف: دراسة في الجغرافية الإقليمية» بحث مستل من **مجلة الجمعية الجغرافية العراقية**، بغداد: ١٩٧٦.

فيلبي، سنت جون **تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية**، تعريب عمر الديراوي، بيروت: بدون تاريخ

الكعبي، فتح الله **زاد المسافر ولهفة المقيم والحاضر فيما جرى لحسين باشا ابن أفراسياب حاكم البصرة**، بغداد: ١٩٢٤.

المجي، محمد حسين بن فضل الله **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، جـ٤، بيروت: بدون تاريخ

مرتضى، نظمي زاده **كلشن خلفا**، نقله إلى العربية موسى كاظم نورس، النجف: مطبعة الآداب، ١٩٧١.

المراجع الأجنبية

Admirality War Staff — Intelligence Division, A hand book of Arabia, London: 1916, Vol. L.

Chelebi, Evliya — **Narrative of travels in Europe, Asia and Africa in the 17th Century,** translated by Joseph Von Hammer, London: 1834.

Crichton, Andrew — **History of Arabia and its People,** London and Edinburgh: 1852.

Della Vall, Pietro — **The Travells of... Into the East India and the Arabian Desert,** London: 1665.

Mandaville Jo E. — "The Ottoman Province of Al-Hassa in the Sixteenth and Seventeenth Centuries". **Journal of the American Oriental Society,** 1970.

Niebuhr, M. **Travels through Arabia and other Countries,** Vol. 11, Translated into English by Robert Heron Edinburgh, 1792.

Pitcher, Donald E. **An Historical Geography of the Ottoman Empire,** Leiden, E.T. Brill, 1972.

Rycaut, Paul. **The Present State of the Ottoman Empire (1663 - 64),** London: 1668 and republished in West Germany, 1971.

Thevenot, Monsieur de **The Travells of.. Into the Levant (1664 - 65),** Part 11, book III, London, 1687 and Repulished in West Germany, 1971.